الجامعة الجزائرية بين أزمة الحضور ورهانات البحث العلمي- العلوم الإنسانية نموذجا-

د بومحرات بلخير

جامعة عبد الحميد ابن باديس مستغانم

الملخص:ترتبط الجامعة الجزائرية ارتباطا وثيقا بمجتمعها، حيث تعمل على تلبية وسد حاجياته ومطالبه، عن طريق توفير الخدمات. فبعد الاستقلال عرفت الجامعة الجزائرية العديد من الإصلاحات، وفي هذا الإطار يمكننا التركيز على أهمية اللغة، ورهان البحث العلمي، داخل الحقل الجامعي، بالوقوف على البعد السوسيوتاريخي، لتوضيح طبيعة اللغة والبحث العلمي، ومن هم الفاعلين فيهما من جهة، إضافة إلى تبيين ما نجم عن المسألة اللغوية ليس فقط في الحقل الجامعي، بل تعدته لتشمل الحقول الأخرى، بميلاد أزمة الهوية أو الحضور في المجتمع. يبقى إذن أمام الجامعة الجزائرية جملة من العقبات العديدة، ومن جملتها أزمة الهوية أو الحضور، ولا يتأتى فهم هذا إلا بالانفتاح على البحث العلمي، والتركيز على أهمية العلوم الإنسانية، باعتبارها البلسم الذي به نفهم أزمات الحضور والوعي والإنسان بشكل عام.

تمهيد:

تقاس درجة تقدم وتطور المجتمع، بالنظر إلى المؤسسات الاجتماعية التي يستند عليها هذا البناء الاجتماعي. ومن جملة المؤسسات الهامة والمصيرية، التي نفهم بها طبيعة المجتمع، سوف نركز على المؤسسة الجامعية، باعتبارها فضاء خصب ومفتوح على جميع الملل والمشارب الفكرية. فتركيزنا على هذه المؤسسة نابع من ثلاث معطيات أساسية، اثنين منهما موضوعيين، والثالث ذاتي.

المعطى الأول نركز من خلاله لضبط ما سيعالجه المقال انطلاقا، من مكانة ومهام العلوم الإنسانية والاجتماعية في الحقل الجامعي، باعتبارها تضم تخصصات، تهتم بالإنسان وقضاياه المتعلقة بماهيته ومكانته ودروه في المجتمعات من جهة، إضافة إلى انعكاس هذا على ما يحيط بالجامعة وبالخصوص الأفراد والجماعات.

يجد الباحث نفسه أمام المعطى الثاني، ضمن جملة من المقاربات والمناهج لتحليل وفهم هذا الموضوع، وبالتالي يطرح السؤال المنهجي البرغماتي، أي منهج أو مقاربة أوظفه للحصول عل نتائج تقربني إلى فهم الموضوع المدروس. وعليه ونتيجة تحقيق هذا المبتغى حاولنا أن نراهن على مقاربة التجانس النسقي*، حيث يرى بورديو أن "لتجانس مستويان، أحدهما داخل الحقل ،أي النسق، بين فضاء الممارسة وفضاء المنازل، وثانيهما بين الحقول، وتتمثل خصوصية التجانسين هنا أنهما يلتقيان ولا يلغي أحدهما الآخر"[1]. وهذا ما يجعلنا نتعامل بليونة بغية فهم واقع الجامعة الجزائرية، ودرجة تأثيرها على المحيط الاجتماعي بكل شموليته. ونتيجة تحقيق هذا المسعى، عملنا

على توظيف التجانس النسقي لأننا نتصور أنها تمثل لنا قوة فكرية وتنظيرية لفهم طبيعة العلاقة، وأوجه التكامل بين الجامعة ودرجة تنمية المحيط الاجتماعي، حيث أن الجامعة تقوم على ترسيخ قيم النظام من خلال إنتاج المعرفة، والتي ستكون بالضرورة في خدمة المجتمع. كما أنها تتيح لنا فهم طبيعة سلطة الحقل الجامعي كفضاء للتنافس والصراع.

أما المعطى الثالث فهو ذاتي على أساس أننا فاعلين في هذه المؤسسة، حيث راودنا شعورين مختلفين. الشعور الأول هو شعور الرغبة، الذي لمسته من خلال ممارسة البحث والتكوين في الجامعة بغية دفع عجلة الجامعة إلى الأمام، لتدوير العجلات الأخرى والمحيط بشقيه الطبيعي والاجتماعي، وذلك بتوضيح المهمات التي تمليها الجامعة على طلبات المجتمع، من خلال توضيح ما وجب فعله، والتطلع إليه لرسم معالم الإستراتجية للآفاق المستقبلية.

أما الشعور الثاني فهو شعور الرهبة من هذا الموضوع حيث أن التخصصات الإنسانية والاجتماعية، مازلت ينظر إليها من طرف المجتمع بنظرة الحيرة والتشكيك والدونية، وأن الطلبة الغير الجادين والمجدين في دراستهم – باستثناء بعض الأفراد- هم الذين يوجهون إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية، وبهذا يفتقد الحقل الجامعي، الفاعلون الحقيقيون الذين يشتغلون على تقديم أجوبة على أسئلة المحيط الاجتماعي، ويربطون الجسور مع طلبات مجتمعه. على الرغم من قتامة عاطفة الرهبة في وصف واقع ومكانة العلوم الإنسانية والاجتماعية ، وعدم قدرتها على تفاعل مع أسئلة مجتمعها ، وهروب هذا الأخير منها بعدم الاعتراف بها. في الأخير انتصرت عاطفة الرغبة في فهم واقع الجامعة الجزائرية وعلاقتها بمحيطها الاجتماعي.

أولا- تعريف الجامعة

تندرج الجامعة ضمن المفاهيم الهامة التي تلزم الباحث الوقوف عندها، لإعطائها حقها من التعريف والتحليل، ومن هذا سنركز على مفهوم الجامعة من ناحيتين مختلفتين ولكن متكاملتين في الهدف :

فمن الناحية الأولى نقوم على تعريف الجامعة من الناحية الاشتقاقية étymologie ، ونعني به اشتقاق هذه الكلمة ضمن معطاها اللغوي. فجذور racines مصطلح الجامعة، مأخوذ من كلمة universel والذي هو" لفظ يكون متسعا في امتداده، ومن هذا نستطيع التمكن من كلية الحالات الإمبريقية التطبيقية لطبقة محددة(universel مفهوم يعارض خصوصية الإحساس)"[2]. بمعنى أن الجامعة تقوم في دلالتها الاشتقاقية على الجمع، أي على حروف ثلاث: "ج" "م" "ع".

وعليه فاللغة العربية لغة اشتقاقية في ماهيتها، التي نستطيع أن نشتق كلمة جامعة المتكونة من الحروف الثلاث. فالجامعة من الناحية الاشتقاقية سواء في إطار الفكر الغربي، أو الفكر العربي، تعني شيئا واحدا هو الإلمام والجمع "وقد استخدمت الجامعة لتدل على تجمع الأساتذة والطلاب من مختلف البلاد والشعوب، حيث جاء هذا التجمع على غرار الاتحادات الصناعية والحرفية التي كانت تقوم بدور تعليمي مهم في العصور الوسطى"(3).

فبعد التعريف الاشتقاقي للكلمة، نعرج على التعريف الوظيفي للجامعة، وعندما نشير إلى الوظيفة، نقصد بها الجامعة ببنائها والفاعلين فيها أي" المكان الذي تتم فيه المناقشة الحرة المتفتحة بين المعلم والمتعلم، وذلك بهدف تقييم الأفكار والمفاهيم المختلفة، وهي أيضا المكان التي يتم فيه التفاعل بين أعضاء هيئة التدريس من مختلف التخصصات، وكذلك بين الطلاب المنتظمين في هذه التخصصات"(4) بمعنى أن دورها ينحصر في ما تقدمه من وظيفة داخل بنائها، من معرفة وعلم، تعمل على تنميته لدى أفرادها من جهة، ومن جهة أخرى علاقة الجامعة بالبنيات المجتمعية للمجتمع"ففي ظل الحياة المعاصرة ومشكلاتها البيئية والقيمية والثقافية، نضج الدور الخدمي لتعليم الجامعي، وبدأ في الالتحام بتلك المشكلات والقضايا لتقديم الحلول والبدائل الموضوعية والعلمية والتي تقلل من تأثيراتها السلبية على الفرد والمجتمع"(5). ومن هذا ينجلي أن الجامعة لا تقتصر وظيفتها فقط على الدراسات النظرية والعلمية المجردة، بقدر ما تتعدى هذه الوظيفة وذلك بالتفاعل مع مجتمعها، عن طريق الدراسات التطبيقية والتكنولوجية، التي تساهم في فك وحل المشاكل والحيرات التي تنتاب الإنسان.وبالتالي تساهم في إحداث تقدم وتطور المجتمع ، عن طريق تحقيق الرفاهية والرخاء والازدهار.

ثانيا- واقع الجامعة الجزائرية ورهان المسألة اللغوية:

من خلال التعريف الاصطلاحي والوظيفي، يتضح أهمية الجامعة على أنها تقوم على سلطان ووازع العلم، الذي تتفق عليه جميع أنحاء المعمورة بأنه المفتاح الذي من خلاله نساهم في تطوير المجتمع، عن طريق موارده البشرية، وذلك بصقل العقول وترويض النفوس على حب العلم وتقديس الإنسان من جهة، ومن جهة أخرى تسخير هذه الطاقة البشرية لإقرار التنمية والدفع بعجلة التقدم نحو الأمام. فبهذه الوتيرة والأداء تؤثر الجامعة على جميع الأبنية الاجتماعية وان كانت شدة التأثير تختلف من بناء إلى بناء آخر.

تحتوي كل مؤسسة على هيكل تنظيمي، من خلاله تضبط فيه بنائها ووظائفها المنوطة بها، و الجامعة كمؤسسة على غرار المؤسسات، تخضع لهذه الهيكلة التنظيمية والهرمية، التي تشرف عليها الوزارة، بمعنى العام السلطة. ونحن في هذا الإطار لا نناقش جميع القضايا التي تعبر عن الصراع داخل الحقل الجامعي، لأن هذه القضايا

عديدة، حيث لا يمكن لنا الإحاطة بها من جميع جوانبها، ونظرا لهذا المعطى سنلتزم بقضية واحدة في فهم مسالة الصراع في الجامعة، وهذا ما نعبر عنه بالمسألة اللغوية.

فبعد الاستقلال اعتبرت المسالة اللغوية في الجزائر من المسائل الحساسة، التي شغلت أركان النظام، "وهذا راجع إلى الدوافع الحقيقة في الواقع التالي الذي ورثته الجزائر المستقلة من فترة الاستعمار الطويلة...فصنف تعلم في المدارس الفرنسية التي أنشأتها فرنسا والتي كانت اللغة العربية مغيبة وممنوعة، وصنف تعلم في مدارس جمعية العلماء والمدارس العربية الحرية"[6]. هذا ما سينعكس على الفضاء الجامعي، على أساس أن اللغة هي الأداة الفكرية والعملية، لتعامل مع متطلبات وحاجيات المجتمع بشكل عام. إن ما نروم الإبانة عنه في هذا الإطار، هو فهم واستحضار المحطات التاريخية لمسالة اللغة في الجامعة الجزائرية، وبالخصوص في كلية العلوم الإنسانية متى كان الأمر ضروري من جهة. ومن جهة أخرى أيضا فهم موقف الفاعلين في دواليب النظام عن طبيعة المشروع اللغوي الواجب تجسيده في المجتمع ومن جملته الجامعة. فبهذا طرحت المسالة اللغوية نفسها بقوة، على جميع الأصعدة الاجتماعية، وانشر ثلاث خطابات أو"ثلاثة أصناف من المتعلمين:المعربون تماما، والمفرنسون تماما، والمزدوجون"[7]، وهذا ما سيغذي الصراع والتنافس داخل الحقل الجامعي ببروز مجموعة من الرأسمال المعرفي، والذي نلخصه في قيمتين من خلال اللغة، والثقافة.

- لغة عربية تقابلها لغة فرنسية
- ثقافة عربية إسلامية تقابلها ثقافة غربية

فأمام هذا الطابع التعددي من حيث اللغة والثقافة، برز في الواقع الجزائري نوع من الصراع في دواليب النظام، حول من يمتلك الأحقية في قيادة المجتمع بشكل عام، والجامعة التي هي موضوع دراستنا بشكل خاص، وهذا ما نجم عنه أيضا"المسؤولية العظمى التي تنطوي عليها اللغة في بناء الوحدة الوطنية، ومشروعية الحكم والمرجعية الهوياتية التي تكشف السبب الذي من أجله هي مدعوة لأن تظل أس المشكلة لمدة طويلة"[8].

فقد انقسم أصحاب النفوذ السياسي في الجزائر على أنفسهم بين من هو مؤيد للغة العربية وذلك بتعميمها في كل الحقول الاجتماعية على أساس أنها مقوم من مقومات الأمة، وعامل هوياتي عمل الاستعمار على تدميره واستئصاله. وتيار آخر مغاير ومنافس لتيار الأول، له نفوذ واسع في دواليب النظام. يرى أن اللغة الفرنسية هي اللغة العلمية التي بها نستطيع إدراك باب التقدم والرقي وهذا ما يطلق عليهم بالتقنوقراط "وإذا كان أنصار الأمر الواقع المفرنس والمستفيدون منه، يستعملون مؤسسات الدولة القائمة وهياكلها، في الدفاع عن الفرنسية، فإن أنصار

التعريب والذين يستفيدون منه يستعملون الحزب وتراث الثورة في المطالبة بالتعريب"[9]. ونتيجة التي آلت إليها الأوضاع، أن برزت إشكالية الهوية التي اتخذت من اللغة حطبا تغذي بها لهيبها، متناسين المهام الرئيسة الواجب تداركها وهو تحقيق التنمية والتطور والخروج من معادلة دول الهامش كما يسميها سمير أمين "فالأزمة الراهنة ليست أزمة هوية على الإطلاق، هناك أزمة اجتماعية حقيقية ناتجة عن القوانين لتوسع الرأسمالي على الصعيد العالم وتحويل بعض مناطق الأطراف في هذا الإطار إلى مناطق مهمشة لا دور تاريخي لها في المستقبل لمنظور"[10].

كل هذه المعطيات أثرت بطريقة ديماغوجية على مسألة واقع اللغة في الوسط الجامعي، نتيجة بروز مسالة التعريب الذي نعتبره من أهم المفاتيح السوسيولوجية، لفهم خلفيات وحيثيات واقع الصراع داخل الحقل الجامعي، الذي يؤثر بالموازاة على الحقول الأخرى، ويعمق الصراع والتنافس عبر أشكال و صيغ سياسية واجتماعية وثقافية. فبغية الإحاطة بأخبار وأنباء واقع اللغة في الجامعة، علينا التطرق إلى مسالة السياق التاريخي للأعضاء الفاعلين في تكريس عملية التعريب داخل الجامعة الجزائرية وبالخصوص كلية العلوم الإنسانية.

فمنذ منتصف الستينيات عرفت الجامعة الجزائرية بعض المحاولات في تعريب الفروع العلمية والتكنولوجية والطبية، فنقلا عن انعقاد ملتقى الفكر الإسلامي بوهران في جوان1971، يصرح سعيد شيبان وهو أستاذ في الطب"فالذين ينتقدون التعريب في العلوم والفنون يقولون مخلصين أو مخادعين إن مستوانا العلمي والتقني سينحط إن عربنا التعليم العالي...ففي الجامعة تنقل العلوم في جميع البلدان وتعرب تعريبا واعيا والمزية الثانية للتعريب الجامعي هي أكبر بكثير للمستقبل، فبالتعريب يتمكن الطالب العربي من الابتكار"[11]. فعلى الرغم من هذه الدعوات، إلا أنه انتصرت في الأخير اللغة الفرنسية كأداة للتعليم، ومنه بقيت جهود التعريب ضئيلة جدا في مجال العلوم، والطب.

أما بالنسبة للعلوم الإنسانية فشمل ذلك الآداب والتاريخ والجغرافيا والفلسفة والقانون ثم عقبته بعض التخصصات الأخرى كالاقتصاد والإعلام، وفي بداية السبعينيات فتح أول فرع معرّب بكلية العلوم يضم بضعة عشرات من الطلبة سنة 1971. وبقيت اللغة كرهان ليس فقط في دواليب النظام أو الوسط الجامعي كأداة لتلقين المعرفة، بل تعدت ذالك بكثير ودخلت في أوساط الطلبة، حيث أدلجت اللغة في مواضيع لا ثبت بالعلم والمعرفة، حيث انعقد المؤتمر الأول للتعريب يومي 15/14 ماي 1975"وقد ضم أكثر من 1200 مشارك وجرى في جو متوتر ميزته صراعات بين الطلبة الأصوليين والطلبة التقدميين، من أجل الاستيلاء على منظمة الشبيبة التي تأسست في جوان 1975"[12].

إبان سنوات الثمانينيات عربت كل من العلوم الاجتماعية والإنسانية في مستوى دراسات التدرج" ففي سنة ديسمبر1979 –جانفي1980 شن الطلبة المعربون في الآداب والحقوق والعلوم الإنسانية، على طريقة الطلبة الإيرانيين، حول التعريب الشامل والفوري...بسبب الصعوبات التي يلاقونها عند التوظيف والدخول غلى سوق العمل، الأمر الذي يجبرهم على التفرنس"[13]. فبهذه المعطيات اكتسحت اللغة العربية جميع حقول التواصل والاتصال، باعتبارها لغة الدين الإسلامي فأضفي عليها القداسة والتبجيل، وصنفت على أنها اللغة الوحيدة التي تمثل المجتمع الجزائر، وبالموازاة نجم عن هذا"تطبيق لقرارات الحزب وقرار اللجنة المركزية لجوان 1980القاضي بتعميم استعمال اللغة العربية وأخيرا قرارات وتوصيات المؤتمر الأول لتعليم العالي أعطى الرئيس الضوء الأخضر في سبتمبر 1980لتعريب العلوم الاجتماعية بالجامعة"[14]. كل هذه الدلائل عجلت بميلاد "في أفريل و ماي 1980، اشتهر باسم الربيع الأمازيغي وهو عبارة عن حركة تدعو إلى الاعتراف بالتنوع الثقافي واللغوي للبلاد...وهذا ما استدعى تدخل الرئيس الشاذلي بن جديد شخصيا في الموضع من خلال الخطاب الذي ألقاه في الندوة الجهوية بتيزي وزو حول التخطيط يوم07/افريل1980 "[15].

فمن خلال هذا السيرورة والصيرورة لمكانة اللغة العربية في دواليب النظام والجامعة بشكل خاص، سنقف على تقييم هذه المحطة،حيث" أقدمت الجزائر على انجاز مهام التخطيط اللغوي بكثير من الحماس والإرادة الجمة، وأحيانا ببعض الارتجالية التي كثيرا ما اتصفت بها سياسيتها الثقافية واللغوية وهذه الارتجالية التي اتسمت بها مع الأسف بالديماغوجية وقد أساءت إلى انسجام وعقلانية المسعى المراد تحقيقه"[16]. إذن هكذا تمّ تجسيد عملية التعريب، ولكن الملاحظ ومن خلال العديد من الدراسات أنّ عملية التعريب، لقيت العديد من العوائق وإن كان تطبيقها قد تم، فإنه تبعها العديد من المشاكل البيداغوجية،حيث ظل "التأرجح بين قطبين متباعدين وتصورين اثنين للتعريب: أحدهما ينظر إلى التعريب من حيث هو عبارة عن تعريب/ترجمة يقوم على الرغبة في الإفصاح عن الأشياء نفسها بالعربية، وحينئذ يكون هذا التصور قائما أساسا على إدماج المعطيات الجديدة التي طرأت عل المحيط الاجتماعي بواسطة الفرنسية وجعل العربية لغة الحديد والصلب، على حد تعبير الهواري بومدين : حينئذ لا يمكننا الحديث عن إعادة التعريب كاستعادة للماضي، بل عن تعريب المكتسبات أجنبية"[17].

أما "القطب الآخر هو تعريب- التحويل،arbisation-conversion، أي ذلك الذي يعكس الرغبة في الإصداع بشيء آخر بالعربية، والإحالة على معطيات ثقافية مغايرة لتلك التي تم إدماجها عن طريق اللغة الفرنسية، ويبدو أن هذا التصور هو الذي يمنح دلالة أكبر للتعريب، وهو الذي يتنادى الناس إليه أكثر لانطوائه على الرغبة في الاختلاف: ويكون فعلا إعادة تعريب بمعنى العودة إلى الأصالة علما بأنه يجب أن نعرف ما إذا كانت

الأصالة موجودة في الماضي أو في ما قبل الاستعمار أم ينبغي البحث عنها في قيم الحاضر"[18]. ومنه نتج عن تعريب العلوم في الوسط الجامعي، ضعف الطلبة في تحصيلهم الدراسي، وانحطاط مستواهم المعرفي، حيث أنهم لا يتقنون لا اللغة العربية، ولا أيضا اللغة الفرنسية، وهذا ما يشير إليه عنصر العياشي"إلى أنه وبعد الحملة التعريبية للفروع والاختصاصات الجامعية، أدّت إلى ضعف في مستوى التعليم عموما وصعوبة التحكم في المفاهيم والمصطلحات خصوصا ومطابقة هذه المصطلحات لما يقابلها في لغات أخرى خاصة اللغة الفرنسية".[19]

ثالثا- الجامعة ووضعية البحث العلمي في العلوم الإنسانية:

نعتمد في معالجة هذا العنصر على تأكيد أهمية البحث العلمي، وما ينتجه من قيم إنسانية وحداثية، نحاكي بها ذاتنا، ونتواصل بها مع الآخر. فبهذا المبدأ ترسخ الجامعة في حقلها المهام والأدوار المنوطة بها، والمتمثلة في الإنسان والحداثة، وتعمل على تعميمها على باقي الأبنية الاجتماعية الأخرى من جهة، بالإضافة إلى أننا نعرج على واقع البحث العلمي في العلوم الإنسانية كوضعية معاشة، نستنطقها متى كان الأمر ضروري في فهم و إدراك، بين ما وجب أن يكون عليه البحث العلمي، وما هو كائن في الواقع.

فالبحث العلمي الهادف يقتضي بالضرورة توفير هيئة من الأساتذة والخبراء والكفاءات المختصة، الذين لهم دراية على كيفية الإشراف على البحث العلمي، حاملين هذه المهمة تحت شرعية رأسمال الرمزي، الذي يشفع لهم بأحقية هذه المسئولية لهم دون سواهم، نهيك عن تواصلهم الدائم بالممارسة التعليمية والتدريسية الطويلة، وخبرتهم الغزيرة ودراساتهم الجادة، في إنتاج معارف علمية خاضعة للمقاييس العلمية والمعايير الجامعية العالمية. كل هذه المواصفات تسهل توجيه وتأطير مجال البحوث العلمية نحو الغايات والطلبات التي يقدمها المجتمع"فزيادة البحث العلمي والقيام بمختلف أنواع البحوث وفي شتى القطاعات بهدف الوفاء بحاجات المجتمع ومتطلباته. وكذا حل ما يعترضه من مشكلات حلا مبنيا على أسس علمية سليمة"[20]. ومن هذا نجد أن هذه الهيئة، المكلفة بالبحث العلمي، تقوم بعدة وظائف يمكن تلخيصها في عنصرين.

العنصر الأول: إنتاج المعارف ونشرها وتطويرها

العنصر الثاني: ترسيخ هذه القيم والمعارف في الأبنية الاجتماعية

وبغية تجسيد هذه المهام في ظروف جيدة وفعالة، يتطلب الأمر توافر جملة من القيم التي يحتاج إليها هذه الهيئة والتي نوجزها في قيمة الحرية"فإذا كانت الحرية الأكاديمية مستمدة من المبادئ العلمية الأكاديمية الجامعية ، والحرية المدنية مستمدة من الدستور فإن هذا يعني أن الأستاذ يتمتع بالأولى كميزة، والثانية كحق"[21]. فتحيل

الحرية لنا مفاهيم وقيم جديدة ، مشجعة ومحفزة للبحث العلمي، سنقتصر على واحد منها والمتمثلة في إبراز الطابع الفرداني الذي يخلق الإبداع ويقر بالتنوع الذي يسمح ببلورة القيم الشاملة universelle، وهذا هو شرط الأساس لبلوغ الحداثة والدخول في دواليبها بعيدا عن التعصب والتكفير والعزل. وبالتالي نضع حدا للوصاية والطغيان باسم الجماعة، أو الدين أو أي مسمى، لتفادي تكرار إعادة إنتاج الحس المشترك لإلزام الجامعيين به .

فالجامعة هي المؤسسة الرائدة إن لم نقل الوحيدة، التي لها المواصفات والإمكانيات لإبراز وتشجيع بروز الفردانية والاعتناء بها، على أساس أنها مؤسسة، تشتغل على سلطان العلم والفكر والإنسانية، ومنه تبقى المنارة التي تدرس وتفهم هذا الحس المشترك، عوض أن تتبناه، وتبين أيضا ما هو صالح وطالح فيه، بأساليب علمية وموضوعية وإنسانية، يكون الاحترام، والآخر، سيد الموقف بين الفاعلين في حقل الجامعة بعيدة عن التعصب وعن لغة إملاءات الصادرة من هنا وهناك.

نحاول أن نقدم توصيفا لواقع الجامعة الجزائرية من خلال حقل العلوم الإنسانية، باعتبار أن هذا المجال هو الذي تكونا فيه عندما كنا طلبة، ومازلنا نشتغل عليه كمادة لتدريس والإشراف على الطلبة.

فنحن في هذا المقام نؤكد على تكوين الطلبة في تخصصات العلوم الإنسانية، نتيجة وجود مقاييس ذات غزارة علمية ومنهجية، يستلهم منها الطالب القواعد العامة، لتطوير قدراته العلمية والفكرية وحتى الإبداعية، لإستعاب النظريات الاجتماعية والإنسانية بشكل عام، في مدة محددة بأربعة سنوات* . فعلى الرغم من هذا الطموح الذي ينتابنا، إلا أن الواقع يبين أن التكوين مازال ضعيفا.وهذا ناتج عن توافد الأعداد الغفيرة من الطلبة، إلى حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية، باعتبارها تحتوي على تخصصات سهلة وبسيطة وغير مكلفة مقارنة بالتخصصات العلمية، وعلى الرغم من أن هذا يتنافي مع الأخلاق والقوانين البيداغوجية، يغض الطرف عنها لغايات يستفيد منها من يترأس هذه المؤسسات الجامعية، أو بدافع القانون الذي لا يسمح للطلبة أن يلتحقوا بالتخصصات العلمية. تبقى العلوم الإنسانية والاجتماعية، تتحمل مع طاقمها التدريسي مخاض هذه الولادة العسيرة، التي ينجم عنها في الأخير، صعوبة في التأطير والتكوين. ونود أن نؤكد على أن هذه المعضلة لها دلالة تاريخية، حيث أنها لم تحل منذ الاستقلال. فهاهو العربي ولد خليفة يرى أن "الجامعة الجزائرية التي تواجه اليوم قاعدة تعليمية تزداد عمقا وانتشارا، ورغبة شعبية عارمة في الحصول على التأمين التعليمي، تجتاح الريف والمدينة على حد سواء، أن هذه الجامعة تجد نفسها في سباق، بالإضافة إلى ضعف إطارها الإداري ونقص مرافق الخدمات فيها (المكتبات والمخابر والمدرجات)"[22]. وفي كثير من الأحوال نجد طلبتنا يفتقرون إلى أدنى معرفة للنظريات

الاجتماعية والإنسانية، التي ينبغي ضبطها ومعرفتها. وهذا ناتج إلى العديد من الظروف، والتي سنلخصها على سبيل التشبيه لا الحصر في ما يلي:

نجد في الجامعة أن الطلبة يتحدثون على عنصر واحد فقط، يربطهم بهذا الفضاء الجامعي، فبه تستوي الأمور، وبواسطته تمر السنة الجامعية بدون توتر واضطراب، يكمن هذا العنصر في النجاح، بأقل تكلفة وجهد، وافتكاك الشهادة الجامعية، بغض النظر عن طبيعة التكوين العلمي الرصين. وعلى هذا الأساس يبقى الطلبة مرتبطين بمحاضرات الأساتذة وفقط. أما على مستوى البحث العلمي فيكتفي الطلبة بما هو موجود في فضاء الانترنيت " حيث أصبح طلبة الجامعات يعتمدون في بحوثهم على مكاتب تجارية تبيع لهم هذه البحوث الجاهزة، يشترونها كما يشترون الوجبات جاهزة من محلات"[23]. وبالتالي أصبحت المكاتب الجامعية شبه أماكن فارغة، وفي أقل الأحوال مكان لتجمع الطلبة. وعنه فقد التكوين الأكاديمي الكثير من روحه ووازعيته، وأصبح جسدا بلا روح وهذا ما يظهر في البحوث التي تقدم من طرف الطلبة التي تفتقر إلى الأصالة والتحليل والابتكار.

ولعل أيضا السمة الغالبة على وضعية التعليم العالي في العلوم الاجتماعية، هو تدني التحصيل الدراسي، وضعف القدرات الإبداعية والتفكيكية لدى الطلبة. وهذا ما ينجلي أثناء فترة الامتحانات التي يقيم فيها أداء التكوين، فتنتشر بعض المظاهر التي تتنافى مع قيم الجامعة كمؤسسة بحثية، حيث يلجأ بعض الطلبة إلى استخدام أساليب الغش و طرق الاحتيال بشتى أنواعه وأشكاله، بغية تحقيق النجاح في الموسم، أما الطلبة المتفوقين فيعملون على إعادة البضاعة للأستاذ، بعد أن استلموها من المحاضرات، معتمدين على مهاراتهم في الحفظ، متناسين أن الامتحان هو فرصة يعبر بها الطالب على إلمامه بالمعارف، ليثمن ما قدمه الأستاذ في المحاضرة. ومن هذا ينمو الإبداع ويزيد الطموح في استشراف واقع معرفي مليء بالتعدد، والتنوع الخصب لطرح وفهم القضايا الفكرية. ولا يقف الأمر عند هذا الحد دون النظر إلى واقع المعاش، لتقديم رؤية شاملة عن وضعية التكوين، فتعقد وتشعب ظروف الحياة، هو تحصيل حاصل لما تفرضه علينا منظومات المعارف الغربية من حداثة التي تتجاوزنا بقرون. وهذا ما يجعل الإشكال أكبر وأعمق، حيث لا يقتصر على البرامج ومراحل التدريس، بقدر ما أصبح يندرج ضمن عملية التعلم بذاتها، نتيجة هيمنة وسائل الاتصال والانترنيت التي قربت المسافات بين الشعوب والأقطار.

خاتمة:

تبقى إذن الجامعة حقلا مجتمعيا هاما في البناء الاجتماعي، تقاس الدول من خلالها قوة حضارتها وعظمة إنسانيتها وروائع ذاتها، التي تعد المنارة التي تفتخر بها المجتمعات. فبهذا تعتبر الجامعة مصنعا لصناعة

العقول وصقل المواهب والمدركات التي تقدمها كخدمات للطلبات الاجتماعية والبيئية والطبيعية. فمن خصوصيات الجامعة مجالها المفتوح الذي يسمح بالتعدد والتنوع الفكري الذي يساهم فعلا في إرساء معالم التطور والتقدم من جهة. ومن جهة أخرى وبحكم قرب الموقع الجغرافي للجزائر من المنطقة الأوروبية، نعتبر هذا فرصة سانحة لنا لنفض الغبار عن الفكر والثقافة، ومراجعتها بعد أن أصابها الفتور والركون لأسباب يطول ذكرها، والعمل على النهوض بالمنظومة الجامعية وذلك بتجديدها وتفعيلها عن طريق الأدوات العلمية والمنهجية، واستخدام المهارات الغربية.

أما في ما يخص البحث العلمي فإنه يقتضي من الباحثين تكثيف جهودهم وفق عمل جماعي ممنهج ومسطر، تغيب فيه الحساسيات الأيديولوجية، وتزول عنه العداوة والأحقاد الدفينة، ويغلب فيه مصلحة الأجيال القادمة، التي تجد في هذا الصرح العلمي، ذاك التنوع اللغوي والفكري، القائم على الأسس الإنسانية والحضارية. وبغية تحقيق هذا المبتغي، ينبغي على الفاعلين في الحقل الجامعي أن يستفيدوا من بعضهم البعض، من خلال خبراتهم وتخصصاتهم للإجابة على ما يطرحه المجتمع من طلبات. وليس توظيف هذه التعددات والتنوعات والخصوصيات لصالح رؤى إيديولوجية ضيقة، نقدمها للمجتمع كي ينقسم على نفسه، متخذا هذا الأخير شرعية لتبرير هذا الانقسام كما نلاحظه في الوقت الحالي. وبالتالي ينجر عن هذا مآسي في المجتمع، عن طريق ظهور العنف واللاتسامح نتيجة غياب الحوار، وتبرز الدوغمائية التي تؤمن بمبدأ "إما أو"، فيفكك النسيج الاجتماعي، وتسود الهزيمة، ويتنصل الفاعلين الاجتماعيين بمختلف حقولهم عن تحمل المسؤولية عن هذه الوضعية التي لا يحسد عليها، وبالتالي نبقى نراوح في أماكننا، دون التقدم لاقتحام دائرة الحداثة والتطور الذي يفرضها علينا الآخر.

الاحالات و الهوامش :

* ينبغي التمييز بين التجانس النسقي، والتوليد البنيوي الذي أوجده تشومسكي ، فالتجانس النسقي حسب بورديو يقوم على العناصر التالية :

1- التجانس الداخلي وهو تلاقي الهابتوس مع الشروط الاجتماعية ضمن حقل واحد كالتجانس بين الهابتوس المدرسي، والهابتوس العائلي.
2- التجانس يقوم على الهرمية وهذا ما نجده في بنية الحقل.وهذا ما يحيلنا إلى توزيع الطلبة على التخصصات ، التي تجعل منهم سمات ، وبالتالي شرائح ذات سمات متجانسة
3- هو تجانس يؤمنه تقاطع العرض والطلب في ذات الممارسة. فأما ما كان إنتاج ، فإن مشروعيته يمنحها إياه فضاء الأذواق، وأما حقل الطلب فإنه يجد تحققه في فضاء إمكانيات لما يعرضه كل حقل إنتاج من سلع. بهذا نقرأ تجانس الحقل التعليمي والسياسي أو حقل اللغة وحقل المدرسة، أو حقل السلطة في عموميته
4- مستوى التجانس هو ذاك الذي يجسر الحقل بحقل السلطة، وليس حقل السلطة بحقل السياسة..على أساس أن حقل السلطة منتشر في جميع الحقول، يخترقها في الوقت الذي يجمعها.

راجع بيار بورديو وجان كلود- باسرون، إعادة الإنتاج في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم، ترجمة ماهر تريمش،مراجعة سعود المولى،بيروت المنظمة العربية للترجمة ،2007، ط1، ص46ص53.

1. بيار بورديو وجان كلود- باسرون، إعادة الإنتاج في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم، ترجمة ماهر تريمش، مراجعة سعود المولى، بيروت المنظمة العربية للترجمة ،2007، ط1، ص43.
2. Christian Godin, Dictionnaire de philosophie, Librairie Arthème Fayard/ éditions du temps,2004,p1382.UNIVERSEL «1- la catégorie dont l'extension est la plus grande, celle sous laquelle on peut subsumer la totalité des cas empirique applicables à une classe déterminée »
3. عبد العزيز الغريب صقر، الجامعة والسلطة، دراسة تحليلية للعلاقة بين الجامعة والسلطة، مصر، الدار العالمية للنشر والتوزيع، 2005، ط1، ص49.
4. المرجع نفسه، ص49، ص50.
5. وفاء محمد البرعي، دور الجامعة في مواجهة التطرف الفكري، تقديم شبل بدران الغريب، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 2002، ط1، 289.
6. محمد عابد الجابري، السياسات التعليمية في أقطار المغرب العربي"المغرب، تونس، الجزائر، منسق المشروع سعد الدين إبراهيم، عمان، منتدى الفكر العربي ،1990، ط2، ص122.
7. المرجع نفسه، ص122.
8. GRANDGUILLAUME, Gilbert, Arabisation et politique linguistique au Maghreb, Maisonneuve Larose, paris,1983.pp34-p42.
9. محمد عابد الجابري، السياسات التعليمية في أقطار المغرب العربي"المغرب، تونس، الجزائر، المرجع السابق، ص123.
10. سمير أمين، برهان غليون، حوار الدولة والدين، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 1996، ط1، ص48 .
11. بن نعمان أحمد، التعريب بين المبدأ والتطبيق، الجزائر، الشركة الوطنية لنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص449.
12. خولة طالب الإبراهيمي، الجزائريون والمسألة اللغوية، عناصر من أجل مقاربة اجتماعية لغوية للمجتمع الجزائري، ترجمة محمد يحياتن، الجزائر، دار الحكمة، 2007، ص200.
13. المرجع نفسه، ص208.
14. المرجع نفسه، ص210.
15. المرجع نفسه، ص209.
16. المرجع نفسه، ص192.
17. GRANDGUILLAUME, Gilbert, Arabisation et politique linguistique au Maghreb, Maisonneuve Larose, paris,1983.p31.
18. ibid. p31.
19. عنصر العياشي، نحو علم اجتماع نقدي: دراسات نظرية وتطبيقه، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1999، ص62
20. وفاء محمد البرعي، دور الجامعة في مواجهة التطرف الفكري، المرجع السابق، ص301.
21. المرجع نفسه، 304.

* ينبغي التمييز بين نظام الكلاسيكي الذي نتحدث عنه في هذا الإطار ، ونظام ل م د، وإن كان يختلفان في طريقة التدريس والبرامج، إلا أنهما يلتقيان في نقطة مشتركة ألا وهي ضمان التكوين الجيد للطالب.

22. محمد العربي ولد خليفة، المهام الحضارية للمدرسة والجامعة مساهمة في تحليل وتقييم نظام التربية والتكوين والبحث العلمي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1989، ص191و192.
23. خلدون حسن النقيب، المشكل التربوي والثورة الصامتة دراسة في سوسيولوجيا الثقافة، في التربية والتنوير في تنمية المجتمع العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2005، ط1، ص63.